

د. شهرة بلغول

المحاضرة الثامنة: مباحث الأدب المقارن:

رحلة الآداب

يهتم الأدب المقارن بدراسة مواطن التلقي بين الآداب، والكشف عن سبل ذلك ونتائجه على الحركة الأدبية، ولأنّ وسائل الاتصال ومظاهره متعدّدة، يتوجب الوقوف بشيء من التفصيل عند بعض العناصر التي تحقق هذا التلاقي بتمظهراته المختلفة.

1/ الكتب:

تمثل الكتب وسيطاً ثقافياً يسمح بتتبع تطورات العلاقات الأدبية بين الآداب، إذ يتيح الاطلاع عليها "تحديد اتجاهات العصر وما سادته من تيارات أدبية، كما يمكن من الكشف عن قابلية الأمة لتذوق تلك التيارات وأسبابها الاجتماعية والثقافية"⁽¹⁾؛ فمن خلال رصد حركة الكتب والمؤلفات سواء الإبداعية منها أو النقدية يمكن تحديد الروافد التي استعانت بها ثقافة ما لإثراء مشهدها الأدبي أو النقدي، وكما يمكن لمؤلف أن يؤثر في أدب أمة بصفة عامة يمكن أن تكون الحركة عكسية لرصد أثر ثقافة أمة بأكملها في أديب معين، إذ يمكن للدراسة أن تنطلق من المؤثر إلى المتأثر أو العكس؛ أي الانتقال من المتأثر إلى المؤثر، مثال ذلك دراسة تأثير مسرح شكسبير في الأدب العربي، أو دراسة المسرح الشعري عند أحمد شوقي.

2/ أدب الارتحال:

يعتبر هذا النوع من الكتابة الأدبية وسيطاً حضارياً في نقل أصداء اللقاء بين ثقافتين، ومهمة المقارن هنا تكمن في استخراج ما رآه الرحلة في البلاد الآخر وما صورّه انطلاقاً من أدبه، فضلاً عن تحديد طبيعة المنظور الذي تحكّم في توجيهه رؤاه، لينتقل لاحقاً إلى دراسة وتحليل أصداء هذه

¹-مناف منصور، مدخل إلى الأدب المقارن سعيد عقل وبول فاليري، منشورات مركز التوثيق والبحوث، بيروت، 1980، ص76-77.

الصور على ثقافته، لتتشكّل "أجزاء الصورة الأدبية للبلاد والشعوب الأجنبية في الأدب القومي، وهذا ما يؤلف نمطا جديدا، من الدراسة المقارنة هو "صورة أمة من خلال أدب أمة أخرى"⁽²⁾؛ فكثيرا ما أسهمت كتب الرحالة في تشكّل تصوّرات عن الثقافات الأخرى استطاعت أن تتحوّل إلى اتجاهات طبعت الثقافة المستقبلية بطابع أجنبي، ومثال ذلك ما تعلّق بالتصوّرات الغربيّة حول الشرق خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، فقد كان لكتابات الرحّالة الأثر البالغ في بلورة ذوق أدبي يتعاطى مع الشرق بنظرة رومانسيّة حاملة، كان لها حضور بارز في أعمال الفنانين والأدباء.

3/ الترجمة:

يلعب المترجمون دورا بارزا في مد جسور التلاقي بين الثقافات المتباعدة، فيقربون بذلك المسافات ويتيحون للأفكار الانتشار خارج بيئاتها وحدودها، لذا يوليهم المقارن عناية فائقة نظراً لما لهم من تأثير بالإضافة إلى تأثير ما يترجمون، فيقف عند الترجمات "يدرس مدى نجاحها، وطريقة اختيار النصوص، ومعنى التفاف هذه النصوص حول تيار أدبي غالب أو حول محور أدبي معين... كما يدرس ذوق العصر وقابليته الأدبية والثقافية والاجتماعية على تقبل أفكار معينة، أو آراء محددة، أو على التعلّق باتجاهات خاصة تعكس جميعا روح العصر"⁽³⁾؛ مما يجعل منهم وسطاء ينجحون بقدر كبير في تحريك عجلة المبادلات الثقافية بين الشعوب.

يسهم التلاقي بين الثقافات المختلفة في إثراء المشهد الأدبي، ومدّه بروافد جديدة تثبت فيه روحاً مختلفة، ينتج عنها تيارات جديدة أو أساليب مبتكرة، كما يمكن أن يتجلى ذلك في انتقال أنماط وأجناس أدبية من بيئتها الأصلية إلى بيئات أخرى مستقبلية، تعمل على تكييفها كي تستجيب لخصوصيّتها الثقافية، وكمثال على ذلك نذكر موضوع "مجنون ليلى" بين الأدبين العربي والفارسي، فقد أدى الاحتكاك بين الثقافتين العربية والفارسيّة خلال العصور القديمة إلى انتقال موضوع الحب العذري بوصفه

²- المرجع السابق ، ص77.

³- المرجع السابق، ص79.

غرضاً شعرياً ارتبط ظهوره بالبادية العربية في الحجاز خلال العصر الأموي، ليكتسب أبعاداً صوفية دينية بعد انتقاله إلى البيئة الفارسية الحضرية، ومن الشعراء الذين اهتموا بهذا الموضوع في البيئة الفارسية الشاعر نظامي الكنجوي (570هـ-614هـ) في قصيدته "ليلي والمجنون" التي بلغت أبياتها 4000 بيت، مستعيداً فيها قصة الحب العذري العربي ومضفياً عليها أبعاداً تتماشى مع خلفيته الثقافية التي أفرزتها البيئة الفارسية.

لقد طبعت البيئة العربية البدوية والعقيدة الدينية هذا اللون من الغزل بسمات المحافظة والتعفف، فكان الشعراء يصدرون في قصائدهم عن وعي خاص لتجربة الحب، بوصفها تجربة روحية لا تدنسها المعصية " ما دام عفا صادقاً، ولذلك يشهدون الله في شعرهم على حبهم، ويجعلون الضمير شفيحاً للإبقاء على عاطفتهم إذا هجس ببالهم خاطر من سلو ويرجون اللقاء مع محبوبتهم أمام الله، لأنهم سيجدون في عدله ملاذاً لهم من ظلم الناس"⁽⁴⁾ فكان جهادهم في سبيل صون هذه العاطفة أشبه بجهاد الفارس للذود عن حماه.

يعد الحب العذري حسب المستشرق لويس ماسينيون موضوعاً أسطوريّاً "تمجد قبيلة بدوية يموت فيها العشاق حباً- عن رقة عاطفية وعهد على العفة القصوى- على أن "يمدوا اليد" إلى موضوع حبهم، في نفس الوقت الذي يدفعون فيه رهافة الود إلى حدّها الأقصى"⁽⁵⁾، إذ تقتضي البنية الأسطورية توافقاً مبعثه ذات جمعية تسعى لتكريس هذا البعد، ونزوعاً مثالياً للذات في سعيها للحفاظ على العهد وحمايته من التدنيس.

يرى الطاهر لبيب أنّ هذه الأسطورة تكرر حالة عدم الارتواء بحكم أنّ الكون العذري صحراء من السراب لا يموت فيها المرء إلا من الظمأ، فتغدو معارضة الزواج نتيجة حتمية لرفع الحبيبة إلى مستوى المثال وليست النتيجة الطبيعية لرفض ما للرغبة الحاضرة دوماً؛ لذا فهذا النوع من الشعر لا يعكس بشكل مباشر المنظومة الدينية التي يصدر وعي هؤلاء الشعراء

⁴- محمد غنيمي هلال، دراسات أدبية مقارنة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، دط، دت، ص17.
⁵- الطاهر لبيب، سوسولوجيا الغزل العربي- الشعر العذري نموذجاً، تر: مصطفى المسناوي، دار الطليعة، بيروت، عيون، الدار البيضاء، دت، ص 73.

لظاهرة الحب متأثراً ومتماشياً معها، بقدر ما يمثل عالماً رمزياً يتموضع بشكل موازٍ "فالعفة هنا ليست نقلاً مباشراً لشعور ديني، كما أنها ليست تعبيراً عن ورع، وإنما هي تعبير عن احترام مفرط للجمال ولعل حضور الله في هذا الموقف لا يستشعر إلا عبر تذكر صورة إله جميل خالق للجمال"⁽⁶⁾.

يقترّب هذا التحليل من الصورة التي تجلّى من خلالها الموضوع في البيئة الفارسيّة، فبعد انتقاله إلى الأدب الفارسي، تحوّلت المحبوبة "إلى" من موضوع الحب والهدف الأسمى له إلى وسيلة أو وسيط يحقق الالتقاء به الارتقاء إلى مراتب عليا لتحقيق غايات مثلى، وتضمن في الوقت ذاته نضج التجربة الروحيّة للمحبّ، ممّا يضيف على المسار رمزية رحلة صوفيّة ذات أبعاد باطنيّة، ينتقل خلالها الحب من بعده الدنيوي إلى بعدٍ إلهي.